الملف الكبير

متولي

بقلم : راشد رستم

أراد (رافيك) ان يقضي عطلته في أحد المشاتي الجبلية الهادئة استمتاعا بالهواء الجاف النقي ، وطلبا لنشاط المرتفعات ، وهربا من حمول المحصنات وبعدا عن ضوضاء المشاتي الصاخبة وما فيها من صاخب الملاهي وتصنعات المجتمعات .

اختار بلدة صغيرة في جبال سويسرا، لايرتادها الا القليل ولا يقصدها الا من يبتغي الراحة والهدوء والاستجمام ، وقد ارشدته اليها آنسة سويسرية تعمل في احدى المكتبات الكبيرة الشهيرة في باريس حيث يقيم رافيك دارسا متفقها متثقفا .

وهذه المكتبة تقع في اول شارع الدواكي الشهير ـ ريفولي ـ من ناحية ميدان (الكونكورد) أوسع ميادين العالم حيث تقوم في وسطه مسلة فرعون المصرية بقاماتها المديدة عدة الآلاف من السنين ، وهي تقف تحاه قوس النصر النابليوني بميدان الاتوال (النجمة) عند الطرف الآخر طريق (الشانزليزيه) اجمل واطول شوارع المدن في العالم ، والعرق بينهما في المسافة بضعة اميال ، واما الفرق في الزمن فعدة الآلاف من الاجيال .

وشارع الدواكي هذا (ريفولي) من اشهر شوارع العالم ، واما تلك الدواكي فهي التي تحمو على الفحم وأغلى الحوانيت ذات الوجهات المملوءة بأنفس الحاجيات ، يمتع بها هدتها من لا يستطيع شراءها وهذه الدواكي من جهة واحدة . أما الجهة الاخرى من الشارع الشمالية الرحام فتوحد على امتداده الطويل حدائق (التويلري) الجميلة ثم متحف (اللوفر) العظيم حتى تصل الى ميدان البلدية الواسع الفسيح . وهناك ترى عدة تماثيل لبعض الامجاد من السياح في وضع جميل ووقفة ذات هيبة وجلال ، وهي بالحجم الطبيعي مما يزيدها حسنا وجمالا .

عرف رافيك الآنسة سوزان من كثرة تردده على هذه المكتبة الامريكية الكبيرة، طلبا للكتب ولان بها صالونا ملحقا بها تابعا لها . صغيرا ولكنه هادئ جميل التنسيق ، يتناول فيه الشاي من يريد من المترددين على المكتبة ومن هم على شاكلتهم ممن يريدون تصفح الكتب قبل شرائها . وهي فكرة تنقيفية طريفة كما انها تتيح التعارف بين الادباء والمثقفين من مختلف الشعوب اذ ان هذه المكتبة تبيع الكتب بجميع اللغات .

والأستاذ سورال في الخامسة والعشرين من عمرها ، داكنة الشعر ، بيضاء البشرة ناعمتها ، وهي بالرغم من انها سويسرية المانية فهي بحيفة ، مشوقة القوام ، رشيقة الهندام ، حلوة القسمات ، عاطفية الشخصية ، هادئة العينين ، لطيفة أنيقة ، قليلة الكلام (مع انها تتكلم خمس لغات !..) بادية التفكير ، صحيحة التعبير ، في نبرات صوتها الواضح وفي ملامح وجهها الصبوح دلالات حزن كمين ، وكآبة مستورة ، رغم اشراقاتها ودعاباتها وابتساماتها ، يرين هذا كله ما في طبيعتها من دعة ورقة وانشام .

هي كثيرة القراءة ، واسعة الاطلاع رغم ضياع اكثر وقتها في المكتبة .

ـ وكيف وعتى اذن تقرئين ؟

ـ ان القراءة تريحني وترضيني .

ـ ولكن من اين لك الوقت الذي يكفي للقراءة ، وللتسلية ؟

ـ ان القراءة هي تسليتي .

ـ القراءة تسليتك ؟!

ـ نعم انها تسليتي .

ـ وما هو اذن الذي ليس تسليتك ؟ !

ـ هو عملي .

ـ غريبة ! .

ـ لا غريبة ولا غرابة . الامر بسيط ان عملي في المكتبة هو مورد رزقي ، واما القراءة والاطلاع فهي حياتي وراحتي ومتعتي .

ـ (مائرا في دهشة !..) والرياضة والاستروحاح والفسح و.. و.. والشباب ؟!

ـ المسألة مسألة مزاج . على اني لا احرم نفسي من ذلك . وهنا في فرنسا اماكن ونقاع ومناطق كثيرة جديرة بالزيارة وتمضية اوقات لطيفة .

ـ اين و كيف ؟

ـ يلوح لي انك حديث عهد بهذه البلاد .

ـ نعم . انها نصف شهور وتودي ان اعرف كل شيء عن باريس وعن معالم فرنسا ومشاتيها ومصايفها . وقد سمعت عنها الكثير كما اني احب الرحلات والاسفار والتنقلات ، ولكني لا احب الرفيق .. وهو اهم من الطريق .

ـ هذا حق . ومع ذلك فقد تستطيع زيارة هذه المعالم والاماكن في اوقاتها وستجد جماعات وجماعات من الزائرين والزائرات من جميع الجهات .. ان معالم فرنسا عظيمة وذات أهمية كبيرة . وقد احتفظت الامة الفرنسية رغم ثورتها العصماء الهوجاء بهذه المعالم الشيقة كما عنيت الحكومات والبلديات على اختلاف نزعاتها عناية فائقة واعتبرتها من تراث الامة العريقة ذات التاريخ القديم . كما ان لهم فيها معالم كثيرة .. وهذا عين الصواب .

ـ عندنا بالكلية كثيرا ما أرى اعلانات من جماعة من الطلاب عن رحلات وزيارات يرأسها استاذ او شخص متخصص . ولكني لم أجرأ على الانضمام وان كنت ارغب فيه . وذلك لاني أشعر ، مخطئا او مصيبا ، بأن الفرنسيين عامة يفضلون انفسهم ولا يرحبون بالغريب بينهم .. غير اني رأيت أن بعضا ممن هم مثلي من الاغراب أجرأ مني يتشجعونني على الانضمام الى رحلات وزيارات تلك الجماعات .. فما رأيك ؟

ـ رأيي ان تنضم وان تذهب معهم حيث يذهبون . وان خشيت الا تفعل مثل ما يفعلون . فلا تفعل واحتفظ بشخصيتك .. وانسا كن معهم .

ـ وهـــل قمت بهـــذه الزيارات والرحلات ؟

ـ نعم ـ عن طريق شركات السياحة وهي تتـــكون عادة من جمـــاعات من السائحين والســـــائحات من مختلف الجنسيات ، يقـــوم عليهم دليل متمرس متعلم مهذب يتكلم عدة لغات .

ـ سأفعل مثل ماتفعلين .. بل حدثيني رفيقا لك عندما تذهبين .

ـ لا . الافضل لك ذهابك مع زملائك طالما كان ذلك باشراف المـــكلية .. ان المخالطة ضرورية للاغراب . ولـــكن لابد فيها من التحفظ ، (اجتمع بغيرك واحتفظ بنفسك) انها القاعدة الذهبيـــة التي استرشدت بها في اجتماعاتي وجولاتي بل في جميع اطوار حياتي ، اتخذتهـــا شعارا وقد وصـــــتها انا لنفسي وهي بالطبع لم تحرمني ابدا من المشـــاركة والاجتماع . مع الاحتفاظ بما اعتقـــد ان الله خصني من كريم الطباع .. ونفـــا نشأت عليها .

كانت المدموازيل سوران تعطف على رافيك لانها تراه غريبا مثلها ، والغريب للغريب نسيب ـ هو من بلاد الشمال وهي من بلاد الجمال .. وهي ترى في ميله الى الكتب عن الادب والاجتمـــاع والفن دلالات على أخلاقه الهادئة واتجاهاته الانسانية . وقد استصدرت له اذنا من مدير المكتبة بالاستعارة (وهي مسألة نادرة) وبذلك اذا أعجبه الكتاب اقتناه او اكتفى بالاطلاع وله حق اعادته . كما جعلت له حصصا من ثمن الـــكتاب الذي يشتريه .

وكثيرا ما كانت تصرح له في مناسبات كثيرة بانها جد سعيدة لتوفيقهـــا الى العمل في هذه المكتبة الكبيرة . اذ انها تحب الكتب حتى ان منظرها ليـــبهجها ..

فضلا عن أن معاشرة الـــكتب ، هـــؤلاء الاصدقاء الاوفياء ، تضـــفي على المرء الصفات الرفيعة والميول الهادئة والآفاق الواسعة والآمال الكبيرة .

هكذا كانت صلات سوران ورافيـــك وأحاديثهما ، تعاطف وصداقة وتقدير ، تزداد بينهما مع الايام . يشعر رافيـــك بانها تريحه وترتاح اليه . فهي توصيه دائما عند ذهابه في عندما ان يعـــود اليها وألا يطيل الغياب عنها . وهو من جهته اذا كانت له جولات اخرى بالمدينة فانه يعمل على ان يراها قبل ان يعـــود الى بيته ..

غير انه لما أراد يوما أن يدعوهـــا الى سهرة في الأوبرا أو لسماع الموسيقى في احدى صالاتها الشهيرة وما الى ذلك من أنواع التسلية الراقية ذات الرسالة الرسيقة الفاضـــلة ، اعتذرت ، فطن رافيك وهو المرهف الحس ، انها لاترضى عن ذلك وان كان غيرها يتسقط عليه فلم يكرر الدعـــوة محافظة منـــه على شعورها . وهكذا كانت تمر الأيام دون أن يلتقيا خارج المكتبة ابدا .

وعندما حان وقت السفر الى المشـــتى ذهب رافيك الى سوران لتوديعها .

ـ امسافر انت حقا ؟

ـ أكنت تشكين في ذلك ؟ .

ـ لا . ولكن ..

ـ ولكن ماذا ؟!

ثم سكتت وسرحت . وكأنها تريد ان تقول شيئا ولكنها لم تقل . فقال هـــو وجعل كأنه لم يلحظ عليها شيئا . قال ـ ان له أصولا في الجمال فهو يحبها ويحب أهلها ويحب من يسكنها ويحب من يحبها .. وان له تشوقا قديما الى ســـويسرا اشهر بلاد الجمال .

تمشى راقية أيامه سعيدة هادئة فى رقعة الحمل ذى الجو النقى النظيف مع اسلم وسط للريف ، وتلك السيجان البيضاء من الثلج القاتم الدائم على رؤوس القمم الشامخات ، وهذه الحضرة فى الحقول والوديان ، والحداول تتحدر من بين الصخور تجرى فى الممرات بين الاشجار وفى العراء ، لامعة رائقة ، بموجاتها الصافيات المتلاحقات ، وكأنها الفتيات الكاعبات الناعمات اللاعبات المتسابقات !! من أين وإلى أين ؟ سبحان الخلاق .. وهو علام الغيوب .

وقد تراسل رافيك مع سوزان عبده رسائل رقيقة ملأى بالمشاعر الطيبة المتبادلة ، وقد لحظ انه لم يكن يسمع منها مثل ما تحمله رسائلها اليه من عذب الاحاديث المتنوعة .

وقد علل رافيك رسائل سوزان اليه بأن من الناس من يكتب بالحرف ما لا يجرأ قوله باللسان ، كما أن منهم من يجهر بالسر مكتوبا دون التلميح عنه أو الهمس به منطوقا .. ثم اتاح لنفسه الظن الذي يرضيه . ذلك بأنه قد لا يكون لسوزان من تكتب اليه .. حتى اذا حانتها فرصة الكتابة الى رافيك جعلت تكتب وتكتب .. وكأنها تبرر ذلك بأنها تكتب اليه . لانها تريد ان تؤنسه في غربته لعلمها بأنه وحيد في عطلته ولا رفيق له في خلوته .. كما تقول .

عاد رافيك الى باريس من مشتاه فأسرع للقاء سوزان عادا بهما يستبحان انتهاجا وديا عاطفيا ولكن في حدود المكتبة .. غير انه وجدها ضعيفة نحيفة فأفهمته انها وعكة بسيطة ستزول قريبا .

بدأت الحياة والحركة تدب في كل المجالات ، ونشط رافيك في دراسته نشاطا كبيرا وخصص اغلب وقته للمذاكرة والدرس ولكن بعد قليل احد يستلم من مكتب البريد القريب من الكلية رسالة اسبوعية مكتوبة على الآلة الكاتبة موجهة اليه من « رميلة بالكلية » لا تصح اسمها . وكل رسالة عبارة عن برنامج تفصيلي عما يجب ان يتجه لكي يستفيد من ايام الاسبوع ثقافيا واجتماعيا ، خارج الكلية ـ مواعيد محاضرات ومسرحيات أوبرات ومعارض فنية ومتاحف وموسيقى وسينما ماهات وما الى ذلك من مجالات النشاط الثقافي والاجتماعي في مدينة النور احصيه مع شرح لكل بند من البرنامج الاسبوعي بكل التفصيلات الدقيقة الصحيحة .. وقد ظن رافيك اول الامر ان هذا البرنامج عام لكل طالب بالكلية من باب الارشاد وان عليه ان يدفع عنه اشتراكا ماليا . ولكن تبين ان الامر ليس كذلك وعندئذ لجأ الى سوزان كعادته فأوصته بمتابعة هذه البرامج والا يهتم لصدورها ولا يعطي بالا لذلك بل عليه ان يستفيد منها ما استطاع الى الفائدة سبيلا وان ليس المهم معرفة من الذي وضعها بين يديه وانما المهم ان يستفيد منها وهي بين يديه . غير انها كانت تسأله ان يعرض البرنامج عليها فقد يكون لها بعض ملاحظات عليها وفعلا رأت ان بعضها سودا ليست ذات اهمية فصلا عما فيها من ضياع وقته كما انه يمكن ارجاؤها الى فرصة اخرى .

وكان طبيعيا ان المعلومات التي في تلك البرامج ماجودة مما ينشر عنها في الجرائد ومن مختلف دور النشر ووكالات السياحة غير ان الغريب انها موضوعة وضعا خاصا يستفيد منه رافيك بالذات .. وهذا ما كان موضع حيرته .. ولذلك فانه رغم نصيحة سوزان ورغم قيامه بالتنفيذ شعر بأن الحيرة استبدت فاتخذ خطة للبحث عن تلك « الرميلة » فجعل يتقرب الى رميلاته واحدة بعد أخرى بالوسائل اللطيفة المصطنعة لعله يهتدي اليها « ويقبض » عليها .. غير انه لم يصل الى نتيجة . اللهم الا انه تعارف واختلط واحتلط وتعارف .. وكان له من هذه الحركة مكسب عظيم وخطوة اجتماعية طيبة الاثر وهي ما كانت تدعوه اليها سوزان .. وهنا ادرك حسن توجيهاتها اليه واخلاصها له .

انصرف شهور الصيف وجاء موعد الاجازات ، فرجع رافيك الى سوران بسنشيرها ، فاشارت عليه عدم المرة بالذهاب الى احد الشواطىء الشهيرة لكي يعلم عنها مايجب ان يعلم وما لم يكن يعلم . وهناك على الساحل الفرنسي الشهير (دوفيل) راى غير ماكان يرى في الجمال ولا ماكان يرى في شواطىء بلاده . وكما ان للجمال جمالها فان لها جلالها . اما السواحل والملاجات فلها مايتطلب البحر والعراء من التجرد والعري ومن التشبه بالاسماك .

لم تطل اقامته لان الشواطىء لاتلائم صحته ، وعاد مسرعا الى باريس الى المكتبة . اين سوران ؟ . انها مريضة . تمضي اجازتها في بلدتها عند جدتها ووحيدتها ، وهي بلدة غير التي كانت قد بعثته اليها في الشتاء .

اقبل عليها شعورا مضعفا ، فكانت المفاجاة . وكانت الصدمة .

عجبت بي لهفة أن تلقاه قاسية فارتدت الى فراشها راقده ، ولم تستطع الا أن تمد اليه ذراعيها تسليما ، وبالبسمات على شفتيها استبشارا ، وبالدموع تذرفها من مآقيها ترحيبا . تستحيل بعد قليل لتكون تحيا .

على انها هدأت وانتعشت واستراحت اياما ، حاول رافيك لها المستحيل طبا وعلاجا . ولكن جاءت الفصل . ساعة العراق بغير تلاق .

دعت عنه وهي بين يديه كما يدعت النسيم العليل ، وبينما يبلل بدموع الاسى خديها ، يضع القبلة الوحيدة بينهما على شفتيها .

عاشت بعلتها تحفيها بين جنبيها ، تمضي بالاولى وتحيي بالثانية ، وبينما يمتلىء صدرها بالهوى ، يخرج منه مافيه من هواء .

فيا ليتهم من يحيب حتى يعلم من اسرار القلوب .

قضى رافيك اياما بالجبل ، لا عالما ولا صاحيا ، هائما متجولا ، حتى اذا كان يوما جالسا حول مرقدها كعادته دائما ، اذا به يشمله شعور غريب ، يمشاه فيعزله عن عالم الحس ، ومضة او بعض ومضة ، يتلقى فيها نداء سريعا خفيا ، يهتف به ان اخرج من القرية التي كنا فيها الى الدنيا التي نحن فيها . انا نحيى ونموت ولكننا لانفنى ولا نموت .

ليس من «فات» فاستراح لمنيت
انما الميت ميت الاحياء

وعزلاء أصحاب الرسالات دعوا باجسامهم ولكنهم باقون بارواحهم ، وها هي ذي تعاليمهم يعمل بها الملايين ، فالحياة مستمرة ولا تنقطع الا صاكلها .

صحا من غفوته ، وعاد الى بطلته ، واستمد لحديد خطوته . اليس هذا الصوت الهامس الخافت الهاتف بين جنبيه هو الايحاء الواعي الداعي الى التفكير والى العمل ؟ اليس هو الرفيق للطريق ؟

نعم . مهما أبعدت الايام عن المرء عميده ، فلن يضيع اذا أثبت هو على الايام وجوده . ولا خوف على النفس ما دام فيها أمل ولها ارادة .

تلك كانت تفكيرات رافيك وعزماته يناجي بها نفسه ويأخذ عليها عهدا حتى اذا حان وقت الخروج من القرية ، وجاءت ساعة العودة الى البلدة ، ذهب في خيال الذكرى يودع الجدة .

حقيبة ملأى بشتى انواع البذكارات والمذكرات ، أحب ما فيها وأعجب الملف الكبير . مسودات أصول البرامج التثقيفية اياها ، التي كان اسبوعيا يتلقاها .

ممن يتلقاها ؟ لم يكن يدري ولكنه اليوم يدري . منها !